

عصام الشماخ: الممثلون أدوات المخرج لصناعة سينمائية هادفة

المزج بين الرؤية الفنية والاجتماعية ضرورة ملحة لتقديم عمل متقن



غياب المفكرين والفلاسفة أضرب بالسينما المصرية

«المحاربون» قضية الفساد والتخلف والجهل في مراكز البحث الطبية، ثم اهتم بمناقشة فكرة العولمة في الأعمال الدرامية التي كتبها أو أخرجها. ونقل مصطلح «سيادة الميديا» للمرة الأولى إلى الجمهور راصدا فورة الاتصالات في ذلك الوقت، وتأثيرها على الأفراد، واستكمل أفكاره في مسلسل «رجل في زمن العولمة»، ثم مسلسل «أسلحة دمار شامل»، وتعرض فيه للكثير من التحولات المحلية والعالمية التي طرأت على الأفراد، وما استجد في التقنيات والفضائيات والإنترنت وشبكات الهاتف المحمولة. ويرى عصام الشماخ أن أزمة الدراما تكمن في غياب العمل الفلسفي الجيد والقصة المتقنة، موضحا «النسبة الأكبر من الأعمال التي تقدمها السينما المصرية ليست جيدة فنيا، نتيجة لطبيعة العصر نفسه الذي يعاني من غياب المفكرين والفلاسفة، وضياح دور المسرح والموسيقى، وتدهور الصناعة والزراعة، فالاجتمع يحتاج لتغيير اجتماعي وحضاري وثقافي وفني، علاوة على ضرورة عودة دور الحكومة ودعمها لروح التحضر من خلال المؤسسات المعنية».

على الهروب ويمر بعدة أزمات وأحداث إلى أن تثبت براعته. ويلفت الشماخ إلى أنه قدم سيرة الشاعر الراحل أحمد فؤاد نجم في فيلم «الفاجومي»، بكل أبعادها السياسية والاجتماعية والفنية، وهاجمه بعض نقاد وكُتاب السينما حينها، لأنه اختار الفنان خالد الصاوي لاداء شخصية «نجم» في الفيلم باعتبار أنه لا يشبهه. ويقول «الصاوي الأقرب لشخصية الشاعر الراحل من ناحية الثقافة والروح، ونجح في الولوج لدواخيل نجم، رغم اختلاف التشابه الشكلي والبنية الجسدية بينهما، وهناك العديد من الشخصيات التي قدمت سيرة أشخاص آخرين ولا يجمعهم تشابه شكلي أو جسدي». وحرص الشماخ في أعماله الدرامية على ترسيخ فكرة الوعي الإنساني، ويقول «كنت مهتما من بداية تجارب أعماله الدرامية بتقديم عمل متكامل يحمل رسالة هادفة وفكرة واضحة، فجهان التلفزيون يغطي شريحة كبيرة من المشاهدين العرب، ويخاطب كل الطبقات باختلاف ثقافتها ومستوياتها الاجتماعية». وقدم في أول مسلسلاته

بها شخصيات متعددة ومعقدة، فقدم كل منها نموذجا فريدا، وأخرج أربعة أفلام، عرض من خلالها تلك التركيبات، ويقول أهمها «مجانين»، والذي مثل تجربة خاصة سرد فيها حكاية طبيب في أحد المستشفيات العقلية، شخصيته متسلطة تعشق المال، وانتهازي يستغل عمله في مصحة لبيع حبوب الهلوسة للعقلاء حتى يصيروا مجانين. ومن خلال تلك الفانتازيا، عبر عن عالم المجانين، فأحدي شخصيات الفيلم، بهجت، يعتقد الفكر الاشتراكي ويحلم بالهروب من سطوة المخابرات الأمريكية، والأخر عالم ويحلم بحل أزمات العالم كلها، ويشعل أصد المجانين النار في نفسه اعتراضا على تفشي الظلم، ويتلمذ البقية لمظاهرة بعد هروبه إلى الشارع. وهناك فيلم «رجل مهم جدا» الذي تعرض فيه الشماخ لسيكولوجية الإنسان المقموع وخوفه الدائم، فسافعي الذي جسده شخصيته الفنان الراحل فاروق الفيشاوي يخاف من أمه التي تعيش معها، ويخشى الحكومة دون أن يخالف القانون، ويعيش مغلقا على ذاته، إلى أن تصطدم سيارته بأخرى فيظن بدافع الخوف أنه ارتكب جريمة قتل، ويجبر

كان نسيج الحارة متنوعا، وتشكل من أصحاب الحرف والمهن الحرة (السباك، الطبيب، المدرس)، لكن القيم التي تحكم هذه الأشخاص تغيرت، ولم تعد القيمة المعنوية الأهم، بل المادة والمال. ويضيف «العرب»، اضطرت أصحاب هذه الحرف نتيجة لتغير قناعاتهم، للهجرة إلى بلاد الخليج للحصول على الأموال، ولجأ بعضهم إلى أساليب «الفهلوة» والخداع والسرقة وتجارة المخدرات، ولم يعد للبطل الذي قُدمته على شاشة السينما وجود، فقد تغيرت طبيعته».

تركيبات متضاربة

يقول عصام الشماخ على فكرة تقديم تلك الشخصيات بعد تغيرها في السينما «السينما دورها تقديم الشخص الشعبي بطبيعته الحالية وواقعه الفج، مجرم اللص من النصفين فاجاتي شخصيا. وتحوّلت أنماط البطل في الحارة، حيث اختفى الرجل الشهم والنبيل نصير الغرابية عن الأعمال السينمائية. وهو ما يؤكد الشماخ، بقوله إن تلك السمات تغيرت مع دخول الفضائيات والتقنيات الحديثة، «في فترة السبعينات من القرن الماضي

تختلف آراء النقاد حول كيفية إعداد الأدوات الفنية لتقديم عمل سينمائي ودرامي متقن وهادف، ويربط البعض بين غياب الاهتمام بشخصيات الأعمال كمدار أساسي لدوران العمل الفني حوله وبين تدهور القيمة المقدمة. ويقول المخرج والمؤلف المصري عصام الشماخ لـ«العرب»، إن تحرير فكرة العمل من خلال شخصية البطل وسيلة مثالية لتقديم قطعة فنية تهيم على مشاعر المشاهد وعقله.

ويقول الشماخ في حوار مع «العرب»، «كنت أول من نفتت لتقديم شخصية طالع النخل على شاشة السينما عام 1987، وعبرت عن الإمه وجروحه وأحاسيسه، ومعاناته من خلال إصابته بمرض البلهارسيا، فتضطره الظروف للسفر إلى القاهرة، ويتعرض لظروف قاسية في مراحل علاجه، حيث يقع في مازق الخضوع لعملية جراحية قد تكلفه حياته، وتزداد الأمور سوءا بتقدم أحد الأثرياء للزواج من حبيبته، فيرضخ لإجراء عملية جراحية خطيرة».

ويستوحى فريق المخرجين المهتمين بالشخصية، أفكارهم من علاقة البطل بالمكان وتأثيره به وتأثيره فيه، ومن الريف استمد عصام الشماخ فيلمه الأول «طالع النخل»، أما فيلم «كابوريا»، وفيلم «توت توت» من بطولة نبيلة عبيد، فقد استوحى شخصيته من الحارة الشعبية، ويلفت الشماخ إلى أنه ابن إحدى حواري القاهرة، وعاش بنفسه معظم الشخصيات المهمشة التي قدمها في أفلامه، وشاهدها لحما ودما. وتابع لـ«العرب»، «لم تكن شخصيات الأماكن الشعبية غريبة عليّ، فعبّرت عنها دون تكلف ورصدت أدق تفاصيلها، وبعض الأحداث التي وضعت فيها تلك الشخصيات حقيقية، فحكاية كريمة التي جسدت شخصيتها الفنانة نبيلة عبيد في فيلم «توت توت» استوحيتها من الواقع». وخارج الشماخ من واقع الحارة، إلى شارع المدينة الأكثر رحابة وتعددا للشخصيات، لكنه ظل منحازا للشخصية الشعبية، ويقول «عزرت عن الواقع الذي تعيشه فتاة الليل بشارع المدينة، خرجت من الحارة لفضاء الشارع من خلال فيلم «رانديفو»، الذي جسدت فيه الفنانة سمية خضاب، شخصية فتاة الليل الشعبية التي يدفعها الفقر والعوز لبيع جسدها لجموعة من الشباب، لكن مسار الحياة يتغير لتبدأ حياة جديدة».

ويعتقد الكثير من النقاد أن سمات البطل الشعبي تغيرت بعد موجة الانفتاح الاقتصادي بشكل عام مع نهاية السبعينات من القرن الماضي، وتحوّلت أنماط البطل في الحارة، حيث اختفى الرجل الشهم والنبيل نصير الغرابية عن الأعمال السينمائية. وهو ما يؤكد الشماخ، بقوله إن تلك السمات تغيرت مع دخول الفضائيات والتقنيات الحديثة، «في فترة السبعينات من القرن الماضي

وائل توفيق كاتب مصري

القاهرة - يعد التركيز على الشخصيات وتطويرها وتحولها إلى أداة سردية للتعبير عن الفكرة وتكوينها من أصعب مهام المؤلف والمخرج، لا سيما إذا أراد تقديم عمل فني ناجح على المستوى التجاري والإبداعي.

المؤلف والمخرج المصري يرى أن الاهتمام بطبيعة الشخصية وسيكولوجيتها يوفر مساحة أوسع للتواصل مع المشاهد

واستطاع قلة من المبدعين العرب تحقيق تلك المعادلة الصعبة، وأحدهم المؤلف والسيناريست والمخرج المصري عصام الشماخ، الذي قدم 24 عملا فنيا، أخرج منها 13 عملا، من خلال رؤية فنية تحضر وحده، وضع في بوتقتها عوامل وشخصية وأفكاره، وحملت خصوصية في واقع السينما والدراما المصرية، كما وضع توليفة حثيث من خلالها القيمة الفنية والتجارية، وجذب انتباه الجمهور وحقق رواجاً الأمر الذي جعل أعماله تدرج ضمن أولويات المشاهد المصري.

البطل الشعبي

انحاز عصام الشماخ لفكرة بطولة الشخصيات الشعبية المهمشة منذ بداية فيلمه الأول «طالع النخل» من بطولة الفنان الراحل عبدالله محمود، واللقب الضوء على شخصية محمد الشاب القروي الذي يعمل كـ«طالع النخل»، يتسلسل ليقلمه وينظف جريده ويجلب ثمار البلح، ثم في فيلم «الاراجون» بطولة النجم الراحل عمر الشريف، الذي كان بطله محمد جواد الكريم، القروي البسيط الذي يمتحن مهنة المخرج، وفيلم «كابوريا» بطولة الراحل أحمد زكي، وقدم فيه شخصية حسن هدهد الملاكم الفقير الذي يعجز عن تحقيق حلم الوصول إلى الأولمبياد، ليكتفي بإقامة حلبات ملاكمة في الحي الشعبي الذي يقطن به.

السينما ومكافحة الصهيونية بالنوايا الحسنة

على يدي حرارة ويثني على مداخلتي التي لاقت صدى طيبا لدى الحاضرين. وقد أدهشني أن يبدي الضابط إعجابته بحديثي الذي تركز أساسا على التضحيات التي قدمها المواطنون البسطاء من أجل أن يتم «العبور» وينجح.

أصر الضابط على أن يصطحبني إلى سيارتي التي كنت قد تركتها عند دار الأوبرا خشية ألا أجد لها مكانا عند الجامعة. وعلى المقعد الخلفي لمحت أكواما من الكتب عن إسرائيل والصهيونية منها ما يعتبر كتابا «سيئة السمعة» تروّج لنظرية المؤامرة مثل كتاب «بروتوكولات حكماء صهيون» الشهير الذي قيل إن رجال قيصر روسيا هم الذين نسوه على اليهود، ولا أرى أبدا أنه مما يخدم القضية الفلسطينية أن تروّج له وتعتبره مصدرا يعتد به لفهم الصهيونية السياسية، وكان هناك كتاب آخر من تأليف ديفيد ديكو الزعيم السابق لمنظمة الكوكلوكس كلان العنصرية.

قال لي الضابط «انظر.. لقد اشترت كل هذه الكتب من مالي الخاص فأنا بصدد تأسيس قسم لمكافحة الصهيونية في جهاز أمن الدولة». ولأني تحدثت عن الأفلام الصهيونية في مداخلتي فقد أخذ يلح أن أرسل إليه شرائط لهذه الأفلام من لندن، قائلا لي «يجب أن تساعدوا مصر!»، وشعرت

الأخر بتدوينها في دفتر صغير. وكان الضابط الأكبر سنا متصلا عن طريق سماعات يعضها في أذنيه بدعوى «عملية» في مقر الأمن، فقد كان اللعب في ذلك الوقت، يتم على المكتشف تماما. وكنت استغرب كثيرا لماذا التواؤم بينهما كان كل شيء يتم تسجيله! كانت الأجواء في الجامعة وقتها مشحونة خلال فترة التوتر التي سبقت غزو العراق في 2003. وفوجئت بعد الندوة بضابط أمن الدولة يأتي ويشد

دائم للعراق ويتذكرون في الم وتحسّر واشتياق، حياتهم في العراق، يحافظون على تقاليدهم العراقية والعربية ويتحدثون اللغة العربية مع بعضهم البعض. كان يجلس طوال أيام المؤتمر، في الصف الأخير من القاعة، رجل يرتدي الملابس المدنية وكان واضحا أنه أحد ضباط «أمن الدولة». وكان يجلس إلى جواره زميل له أصغر سنا، وكان «الكبير» يقوم بإملاء «الصغير» بعض المعلومات مما يتردد في المؤتمر يقوم



لا شيء تغير

أكتوبر 1973، فقلت إنها لم تقدم حتى الآن عملا كبيرا يعكس -لا قدرة الجيش ويطولات الجنود- بل قوة الشعب وقدرته على التحمل والصبر لسنوات طويلة إلى أن أصبح ممكنا شن الحرب بكل تلك القوة. وقد أعقب كلامي عاصفة هائلة من التصفيق فاجاتني شخصيا. وفي اليوم التالي عرضت فيلم «أنس بغداد... الشبكة العراقية» للمخرج العراقي- السويدي سمير جمال الدين وناقشته مع الطلبة والطالبات. وكنت قد رأيت لجنة تحكيم النقاد التي منحتها في مهرجان لوكارنو السويدي عام 2002 جائزة أحسن فيلم من أفلام ظاهرة «أسبوع النقاد» وأحضرت معي نسخة (VHS) الهدائي إياها مخرجه. وقد ذاع صيت هذا الفيلم في ما بعد وحصل على الجائزة الكبرى في مهرجان الإسماعيلية السينمائي للأفلام التسجيلية والقصيرة في العام التالي، وكنت قد أرسلت منه نسخة إلى صلاح مرعي نائب رئيس المهرجان وقتها واقتربت أن يفتتح به المهرجان وهو ما حدث بالفعل، وكان علي أبو شادي يرأس المهرجان ولا شك أنه رجب بعرض الفيلم لقيمته الفنية بغض النظر عما يمكن أن يفخره من جدل كونه يقدم في صورة إيجابية عددا من اليهود العراقيين بعد أن هاجروا إلى إسرائيل، أي أصبحوا مواطنين في دولة الاحتلال، لكنهم يعيشون في شوق

أمير العمري كاتب وناقد سينمائي مصري

في عام 2002 دعيت للمشاركة في ندوة بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة ضمن أسبوع مخصص لدراسة «إسرائيل من الداخل». كان معي على المنصة بعض الأكاديميين إلى جانب الأستاذ بلال فضل الذي قدمه وقتها باعتباره كاتباً للسيناريو، ولم أكن أعرف عنه سوى أنه صحافي يكتب بعض المقالات الساخرة. واستغربت أن يشارك سيناريست لم يكتب سوى فيلم واحد من النوع الخفيف في ندوة عن موضوع جاد كهذا، وكان هو قد أعد ورقة أخذ يقرأ منها عن السينما المصرية وحرب أكتوبر. بمرور الوقت أصبح بلال فضل كاتباً بارزاً وسيناريست يجيد الحرفة، وسيتكشف الزمن أن بلال فضل ليس فقط كاتب سيناريو «بلطية العائمة» وأخواتها، بل كاتباً موهوباً وناقداً سياسياً صاحب موقف صلب في زمن تهاوى فيه الكثيرون. تناولت خلال مداخلتي عن «السينما الصهيونية» الكثير مما جد واستجد في هذا الموضوع الذي سبق أن أصدرت كتابي الأول عنه «سينما الهالك». ثم جاءتني أسئلة كثيرة من القاعة منها سؤال عن السينما المصرية وحرب